مقاومة الأوراس للاحتلال البيزنطي

أ.حفيظة لعياضي. أستاذة مساعدة "أ" جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

ظلت بلاد المغرب القديم عامة تواجه الاحتلال الأجنبي خلال عدة قرون من العصر القديم، الاحتلال الروماني، الوندالي فالبيزنطي. وتمثل منطقة الأوراس جزء جغرافي وسياسي مهم من هذه البلاد أثبتت وجودها في فترة استقلال بلاد المغرب القديم مكونة نواة الممالك النوميدية، وقاومت الاحتلال الروماني طيلة مدة وجوده سياسيا واجتماعيا، مثلما فعلت ذلك مع الوندال خلال القرن الخامس ميلادي. ومع محاولة البيزنطيين دخول بلاد المغرب واسترجاع الممتلكات الرومانية بها سنة 533م، أردنا أن نعالج في هذا الموضوع إشكالية ما كان موقف مور الأوراس من الصراع الوندالي البيزنطي؟ وما رد فعلهم اتجاه السياسة البيزنطية الادارية، العسكرية والاقتصادية والاجتماعية؟ ثم ا انعكاس ثورات الأوراس على المور البيزنطيين؟

ولكن قبل كل هذا علينا أن نفهم أولا ماذا يعني مصطلح المور في الكتابات التاريخية القديمة. فالمور في الأصل كانوا يمثلون أحد شعوب شمال إفريقيا المتواجدة في المنطقة الأطلسية للمغرب الأقصى قبل الاحتلال الروماني، وبالضبط من نهر مولوشا إلى المحيط الأطلسي، مثلما أوردته مصادر تلك الفترة أمثال "تيت ليف" عند حديثه عن الحرب البونية الثانية وجيش القائد القرطاجي "أصدروبال" بأن معظم أفراده كانوا نوميد أو مور[1]. أما بقية بلاد المغرب فقد كان يشغلها النوميد. لكننا نلاحظ أنه بعد ثورة "يوغرطة" (112-103 ق.م) بدأ اسم نوميد يختفي ببطء وامتد مقابل ذلك اسم "المور" تدريجيا نحو الشرق، فهذا الاتساع للمصطلح كان مرتبطا بالتقلبات السياسية لإفريقيا. ذلك أنه مع الاحتلال الروماني لبلاد المغرب نجد بأن الارتباط الطويل لنوميديا بمقاطعة أفريكا الرومانية جعل اسم نوميديا يختفي ويصبح مقتصرا على قبيلة صغيرة حول مدينة " Thubursicu Numidarum"[(*)]. أما تسمية "مور" فقد استمر في تطور مجال استعماله نحو الشرق، وأنه انطلاقا من القرن الثالث ميلادي أستحدم هذا المصطلح لتمييز الأشخاص (les gentes) الذين لا تحكمهم الادارة الرومانية، ثم لاحقا عني به كل الأفارقة غير المترومنين من المحيط الأطلسي إلى خليج السرت[2]. وهو المعنى الذي انتهى اليه المصطلح الموري خلال القرن الرابع فالخامس والسادس ميلادي، أي جميع العاصر غير المترومنة سواء انتمت أم لا إلى القبائل المستقرة داخل التراب الخاضع للسلطات السياسية الأجنبية[3]، أي الذين كانوا خارج السيادة الرومانية

---

(1) Tite Live, Histoire romaine, XXII.

(*) لقد أحتفظ بهذا السم خاصة لتمييز هذه المدينة (طبرسقة النوميدية) عن مدينة " Thubursicu Bure " (أنظر: G. Camps, « L'inscription de Béja et le problème des Dù Mauri », Revue Africaine, T. 98 office des publications universitaires, Alger, 1954, p.253.

(2) G. Camps, Ibid.

(3)" ويقابل مصطلح "موري" في ذلك الوقت مصطلح "الروماني"، الذي كان يقصد به من خلال المصادر كل عنصر أثبت انتماءه للحضارة الرومانية. فالفصل بين العناصر المترومنة والموريين كان قائما على اختلاف نمط الحياة لدى كل منهما، فيكون الروماني هو

فالوندالية، ثم البيزنطية. فقد عم مفهوم المور سكان المناطق الفالتة من أيدي حكام المقاطعات في كل من موريطانيا القيصرية ونوميديا منذ القرن الرابع ميلادي. حيث تكرر الاسم لدى "أميان مارسلان"[1] عند حديثه عن ثورة فيرموس وجيلدون ضد الرومان، وورد في النقوش دالا على الأقوام المتمردة على الرومان بما فيهم الأمراء المور والعشائر الحليفة التي انتفضت وناوأت السيادة الرومانية. ثم تردد هذا اللفظ على لسان الأساقفة الكاثوليك المعاصرين للعهد الوندالي، أمثال "فيكتور دي فيتا" عندما تحدث عن سياسة الوندال الدينية بعد الاحتلال[2]، ثم على لسان بروكوب الذي استعمله بصفة دائمة للدلالة على حلفاء الوندال من الأهالي دون تمييز بين أسماء الأقوام العديدة. فالمور بالنسبة لبروكوب هم سكان الأوراس، الحضنة، السهوب والمرتفعات الموريطانية الوسطى والغربية على السواء[3]. ولم يكن يميز بين سكان المقاطعات الافريقية سوى من حيث درجة العلاقة بالسلطة المركزية الممثلة في المدن. فسكان المدن والمزارعون التابعون لهم كان يدعوهم بروكوب بالأفارقة دون تمييز بين أعراقهم وطبقاتهم الاجتماعية ونحلهم الدينية، بينما دعا جميع الأهالي الذين لا يندرجون تحت هذا الوصف بالمور[4]. وقد حذا حذوه الشاعر كوريبوس[5](Corippe). بل إن أولئك المور قد اتخذوا ألقاب سامية مثل أمير أو قائد أو ملك، ففي القرن السادس ميلادي تشكلت على يد تلك القبائل المورية نواة مؤسسات سياسية يرأسها قادة موريون اتخذوا في بعض الأحيان اللقب الملكي، وهذه المؤسسات ليست مؤسسا محدثة نابجة عن اندحار سلطة الوندال، بل تعود إلى بداية تراجع الامبراطورية الرومانية عن أجزاء هامة من شمال إفريقيا، ومع سقوط الوندال اتسعت حركة استقلال القبائل المورية في مناطق واسعة من نوميديا، بيزاكينا، وموريطانيا القيصرية وغيرها. ويبدو أن كوريبوس حينما أشار إلى استقلال القبائل المورية نعت زعيم الموريين بلقب لاتيني وهو "Princeps" الذي يعني الأول بين أقرانه ويترجم عادة بالأمير. أما بروكوب فقد استعمل مصطلح "أرخون" الاغريقي الذي يقصد به أحد الحكام التسعة في أثينا، ويستعمل أحيانا تفاديا لاستعمال مصطلح "ملك"، أي أن كل من "Princeps" و"أرخون" يستعملان في معان تندرج من القائد الأعلى للحرب إلى الملك، لأن القبائل المورية كانت تحتفظ باستقلالها في تسيير شؤونها الخاصة،

ذلك الشخص المخلص للحياة الحضرية وجميع المظاهر الرومانية التي انتشرت بشمال إفريقيا، وعلى رأسها اللغة اللاتينية والدين المسيحي، أما الموري فهو من بقي مخلصا لتقاليده القبلية ومحافظا على أعرافه المحلية"(أنظر: جميل، حمداوي، المقاومة الأمازيغية عبر التاريخ، منشورات المعارف، الرباط- المملكة المغربية، 2013، ص269-270)

(1) Ammien Marcellin, Histoire de Rome, XXIX, 5.

(2) Victor. Evèque de Vita, Histoire de la persécution des vandales, I, VIII.

(3) Procope, Guerre es Vandales, I, VIII, 3.

(4) محمد البشير، شنيتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني. بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 443.

(5) Corippe, Johannide, chant V, T. VII, Revue tunisienne, 1900, Tunis.

وهي لم تكن لتلتف حول زعيم أعلى تفوق سلطته شيخ القبيل إلا في ظروف الحرب، لذلك يظهر الملوك الموريون في النصوص التاريخية كمحاربين وقادة للجيش[1].

فقد دون أحد الملوك المور ويدعى "مازوناس" (Masuna) في إحدى النقائش اللاتينية في "ألتافا" (Altava)[*] يحمل لقب رائع وهو "Rex gentium" و "Romanorum"، أي أنه ملك شعبي المور والرومان في نفس الوقت[2]. حيث تحمل هذه النقيشة تاريخ 508م، أي أن هذا الملك عاصر"تراسموند" (Trassamond) ملك الوندال، إذ كان لمملكته أحواز وقلاع ومدن على رأسها حكام أقاليم نصت على أسمائهم هذه النقيشة.

كما وثق زعيم موري آخر وجوده في منطقة الأوراس، وهو المدعو "مستياس" [**](Masties) وذلك في نص نقيشة تذكارية تم العثور عليها في "أريس"، جاء فيها أنه حمل لقب قائد امبراطور، وأنه كان أثناء حطمه متصفا بحسن السلوك والعدل إزاء رعاياه المور والرومان، وعاصر ملوك وأمراء آخرين حكموا أقاليم مختلفة كبلاد الحضنة، وجنوب شرق الأوراس ، إلى تخوم طرابلس[3] التي كان يسيطر عليها أمير القبائل الرحل "غباوون" (Gabaon) الذي كان ذو تجربة كبيرة في القتال كما ذكر بروكوب[4].

فهذه المعطيات حول ممالك المور نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس ميلادي، المعاصرة لنهاية الحكم الوندالي في بلاد المغرب القديم، تجعلنا نتساءل عن نوعية العلاقة التي ربطت أولئك المور سيما منهم مور منطقة الأوراس بالوندال[5]. حيث أن ما يمكننا استنتاجه من خلال المصادر أمن أوضاع المور كانت متغيرة مع الوندال من حيث المصالح، فقد مرت العلاقة بينهما في بداية الأمر بحالة مسالمة قامت على احترام مصالح الطرفين، إذ لم يعترض المور سبيل الحملة الوندالية المتوجعة إلى مركز السلطة الرومانية في قرطاجة[6] سنة 455م، كما شاركوا في

([1]) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص271.

([*]) ألتافا هي ولاد ميمون الواقعة شرقي تلمسان بالغرب الجزائري.

([2]) G. Camps, Op. Cit, p. 254.

([**]) هذا النقش عثر عليه سنة 1942 في أريس بباتنة، كتب باللغة اللاتينية حيث يقول نص النقيشة: "إلى الاله Manes. إنه أنا Masties، دوق (Dux) لمدة 67 سنة وامبراطور لمدة 40 عام..." (للمزيد أنظر: J. Carcopino, « Encore Masties l'empéreur maure inconnu », Revue Africaine, Tome 100, 1956, p. 340.)

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر. قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى، عين مليلة– الجزائر، 2013، ص244.

([4]) Procope, Guerre des vandales, I, VIII, 3.

([5]) " توجه الوندال إلى إفريقيا سنة 429م، كان أول نزولهم بطنجة ثم تتبعوا مسيرة حملتهم باتجاه الشرق، حيث اصطدموا بالرومان على حدود البروقنصلية، ثم أخذوا "هيبون" التي سقط خلال حصارها القديس أوغسطين، ودخلوا قرطاج سنة 439م" (للمزيد أنظر: Claude Bourgeois, « Vandale et vandalisme en Afrique »n Antiquité Africaine, Tome. 16, By Creative Commons, 1980, p. 216.

([6]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 255.

الحملات الموالية، وقد أوكلت لهم مهمة الدفاع عن سردينيا بعد احتلالها من طرف الوندال[1]. لكن الظروف تغيرت على ما يذكر بركوب بوفاة "هونوريق" (Honoric) (477-484م) بعد 8 سنوات من الحكم، إذ خرج مور الأوراس عن السلطة الوندالية وصرحوا باستقلالهم، وأنه منذاك لم يستطع الوندال اخضاعهم لأن المنحدرات الحادة والمحززة لجبل الأوراس منعتهم من نقل الحرب اليها[2].

فهذه الثورة كان سببها ما أحدثه الاحتلال الوندالي من تصدع في اقتصاد بلاد المغرب القديم، مما نتج عنه اضطراب في النظام الاجتماعي واستغلال الفلاحين للقلاقل التي حدثت خلال القرن الخامس للميلاد مثلما ذهب اليه جوليان، لإعلان تمردهم –إن صح القول- بعدما قاموا به من استغلال الملاكين الفاحش وتعسف رجال السلطة الذين كانوا يعملون السيف في الدوناتيين والمتمردين على حد سواء. فلم يقف زحف تلك الثورة بالأوراس إلا على حدود قسنطينة[3]. فثورة الأوراس هذه تعد حدثا أساسيا في مملكة الوندال، لا لأنها مست الوندال في قوتهم الأساسية، ولا لأنها سببت لهم هزيمة كبرى، لكن لأنه معها بدأت الممالك المورية تنمو في إفريقيا المستقلة، ومنها مملكة الأوراس التي كل ما نعرفه عنها في عهد الاحتلال الوندالي هو استيلاؤها على تاموقادي وباغاي، الذي يبين لنا نزول سكان الأوراس إلى السهول، وكذا استيلاؤها على المناطق الخصبة والغنية غرب الأوراس والمجاورة لمملكة الحضنة[4].

وإذا كان بروكوب قد اعتقد في هذا الصدد بأن مور الأوراس كانوا شديدي الحذر من الوندال أو أي احتلال أجنبي آخر لدرجة أنهم قاموا بتدمير هذه المدن لكي لا يسمحوا للأجنبي بالاستقرار بها، فإن الأبحاث الأثرية تثبت أن العمارة المدنية خلال القرن الخامس والسادس كانت متراجعة في نوميديا الجنوبية، وأن مدنا مثل تيمقاد، باغاي أو لامبيز قد فقدت أساس ازدهارها السابق، فمن التهور أن نجعل المور الجبليين مسؤولين عن تهدم هذه المدن، لأن الآثار لم تستخرج أبدا أثرا لهذا التحول العمراني، وأن الأسباب الحقيقية لهذا التراجع يعود ربما للتحولات الاقتصادية أو السياسية أواخر الامبراطورية الرومانية والتي ساهمت في انحطاط الحياة العمرانية[5].

---

(1) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، الجزائر، 1992، ص 246.

(2) Procope, Guerre des vandales, I, VIII, 1. ، فالأوراس في نظر بركوب يقدم مظهرين مختلفين، الأول منهما كونه بمثابة جنة بالنسبة للقاطن به أو لمن يجتازه مسالما، ولكنه ضد العدو الذي يجتاحه يمنح لساكنته مصادر تحصينه وترسانة كاملة من الفخاخ" (أنظر: Michel. Janon, « l'Aurès au VI siècle. Note sur le récit de Procope », Antiquité africaine, T. 15, 1980, p. 346.

(3) شارل أندري، جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، ص 347.

(4) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص247.

(5) Michel. Janon, Op. Cit, p. 346.

والواقع أن بلاد المغرب كلها كانت تشتعل بالثورات المحلية ضد الوندال ولم تقتصر على الأوراس فقط، كزحف القبائل البدوية القادمة من الجنوب الشرقي بقيادة "غباوون" (Gabaon) والتي استعملت الجمل في تنقلاتها وفي القتال، فسميت بالقبائل الجمالة[1]، وكذا ثورة "أنتلاس"[*] الذي كان ملكا على المزاق. فتلك الثورات لم تتوقف بوفاة "هونوريك"، بل تزايدت في عهد خليفته "قوثاموندوس"، وقد تكون غاراتهم وراء اختفاء لوحات ألبرتيني في وقت لاحق (21 أفريل 496م)، وهي الفترة التي كان على الملك أن يدافع فيها أيضا على السكان الذين كانوا يتعرضون للنهب. لكن هذه الغارات كانت من الشدة لدرجة أن القديس "فولجانتيوس" (Fulgence) اضطر لمغادرة المونستير (Monastere)إلى منطقة المدينة القديمة (Thelepte) (قفصة). ويبدو أنه بعد ذلك بقليل لم تفلت من هذه الثورة غير المناطق الساحلية للمزاق. وأمام هذا الخطر المتزايد قرر "هلدريك" إرسال قوات تحت قيادة "هيلديمير" (Hildimir) الذي برهنت هزيمته على أن " أنتلاس" كان سيد الموقف، ولم يعد بإمكان الوندال التصدي لثورات المور التي عمت متلف المناطق وحصرت الوندال في البروقنصلية ومناطق محدودة من المزاق، وهو ما سهل دخول البيزنطيين[2].

فقد وجد البيزنطيون جميع البلاد الواقعة على تخوم المقاطعات من طرابلس إلى الأوراس ونوميديا الجنوبية مستقلة في شكل إمارات قوية كانت تبسط سيطرتها على معظم الأراضي الموالية لها، سواء برضا الوندال أو من غير رضاهم، ولعل الكثير من تلك الامارات كان حليفا لملوك الوندال الذين أحسوا بالضعف فاحتموا بهم من جهة الجنوب ليأمنوا شرهم. ومن بين الملوك المور المشهورين في كتابات ذلك العصر نجد "يبداس" (Ibdas) الذي كان باستطاعته أن يجمع 30 ألف فارس حوله، مثلما ذكر بركوب، كما كان إلأى جانبه ملك الحضنة وجنوبي الأوراس المدعو "أورتياس" (Orthias)، كما كانت موريطانيا كلها تحت قيادة ملك سماه بروكوب "مستيغاس" (Mastigas) باستثناء مدينة قيصرية. أما غرب القيصرية فقد أنشأ الملك "مازونا" (Masuna) منذ أوائل القرن الخامس مملكة واسعة الأرجاء ضمت مدنا شعيرة مثل "تيهرت" و" فرندة" و"ألتافا" (ولاد ميمون) مثلما ذكرنا[3].

والواضح أنه مثلما أورد مصدرنا بروكوب الذي ساير الحملة البيزنطية على بلاد المغرب، أن المور التزموا الحياد في الصراع بي الوندال والبيزنطيين، واعتبر ذلك خبثا ومكرا منهم خلافا للبعض الآخر الذي اعتبره تكتيكا

([1]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 256.

([*]) "أنتلاس (Antalas) من أهم ملوك الفركسيس (الفرشيش) التي كانت تتواجد بجبال الظهر التونسية، ابن الزعيم الموري "كوينيفان" (Guenefan)، ظهر أنتلاس في القرن السادس ميلادي، حيث حارب الوندال والبيزنطيين مدة طويلة إلى أن وسع نفوذه في الكثير من المناطق بليبيا وتونس ونوميديا. تقع مملكة أنتلاس في قلب ولاية بيزاكينا (المزاق) بجبال الظهر التونسية، في المثلث الذي يجمع بين تالة، قفصة (Thelepte) (المدينة القديمة)، وتبسة (Théveste). فداخل هذا المثلث نشأت النواة الأولى لمملكة الفركسيس (Frexes)." (للمزيد أنظر: جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 242).

([2]) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 248.

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 411.

عسكريا تعود عليه الأهالي عامة، فقد رأوا في هذا الصراع استنزافا لقوة الخصمين[1]، وهو ما توضح عندما حاول "بيليزار" استمالة أولئك المور وتثبيتهم على مجال نفوذهم، باعثا اليهم صولجان من فضة مذهبة، وإكليل من فضة مزخرف وبرنس أبيض أقفاله من ذهب، ومئزر مزركش وأحذية مطرزة بالذهب، إضافة إلى كمية وافرة من النقود، وهذا بعد ما أرسل مور بيزاكينا (المزاق)، نوميديا وموريطانيا سفراء إلى "بيليزار" (Bélisaire) مثلما أشار بروكوب، ليقدموا اليه دعم أسلحتهم وتأكيد خضوعهم للامبراطور، لكن لا أحد من أولئك الأمراء المور منحه فيالق عسكرية في حملته ضد الوندال، بل التزموا الحياد الصارم وانتظروا نهاية الحرب[2].

فتلك البروتوكولات التقليدية لم تعبر بصدق عما كان يضمره كل طرف إزاء الآخر. ف "بيليزار" كان عليه تنفيذ أوامر الامبراطور بالاستيلاء على المقاطعات الرومانية سابقا، بينما أمراء المور كانوا حريصين على الاحتفاظ بإماراتهم وممتلكات رعاياهم بمعزل عن أسياد إفريقيا الجدد. ومن ثمة كان الصدام أمرا حتميا بين الطرفين، وهو ما سيحدث عندما يتحرك البيزنطيون نحو الداخل[3]. فبمجرد إقلاع "بيليزار" في مراكبه قاصدا القسطنطينية مطمئنا إلى حياد المور، إذا بهم يثورون في المزاق ونوميديا، هذا ما عزاه بركوب إلى الحقد الدفين الذي كان يكنه المور نحو الغاوين وإلى تحول طباعهم وتقلبات مزاجهم، ومهما يكن فإن البيزنطيين قد واجهوا منذئذ حربا مزمنة ضد القبائل المورية[4]، لأن هؤلاء الأخيرين رفضوا الانصياع للأمر الواقع الناجم عن سقوط الوندال وانتصاب البيزنطيين بدلهم في بلاد المغرب، سيما وإدراكهم أن هؤلاء لن يكتفوا بأملاك الوندال، وأنهم عازمون على استعادة السيطرة العسكرية المباشرة على المقاطعات الرومانية السابقة دون الاهتمام لتغير أوضاع هذه البلاد في عهد الاحتلال الوندالي، خاصة وأن أهلها ذاقوا طعم الاستقلال والحرية وعدم التقيد بإرادة الأجانب في تسيير شؤونهم الاقتصادية والدينية[5]، كما أن الوعود التي قطعها البيزنطيون على أنفسهم لم ينفذوها ولم ينل المور عموما من البيزنطيين غير الدمار. فالحروب أثرت على الانتاج الزراعي، إضافة إلى عودة الاضطهاد الديني والضرائب، وهي كلها عوامل تدعو إلى حمل السلاح. والجدير بالذكر أن تفوق الأسلحة البيزنطية والقواع التكتيكية لن تجدي نفعا مع أولئك الثوار المور، لأنه في مواجهة خفة الفرسان المور تبدو الجيوش البيزنطية ثقيلة وبطيئة الحركة، وتعجز خطط المعارك المنظمة التي تعود عليها القادة البيزنطيون أمام أسلوب الكر والفر والكمائن لدى المور[6].

([1]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 270.

([2]) Procope, Guerre des vandales, I, XXV, 2.

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 260.

([4]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 365.

([5]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 260.

([6]) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 279.

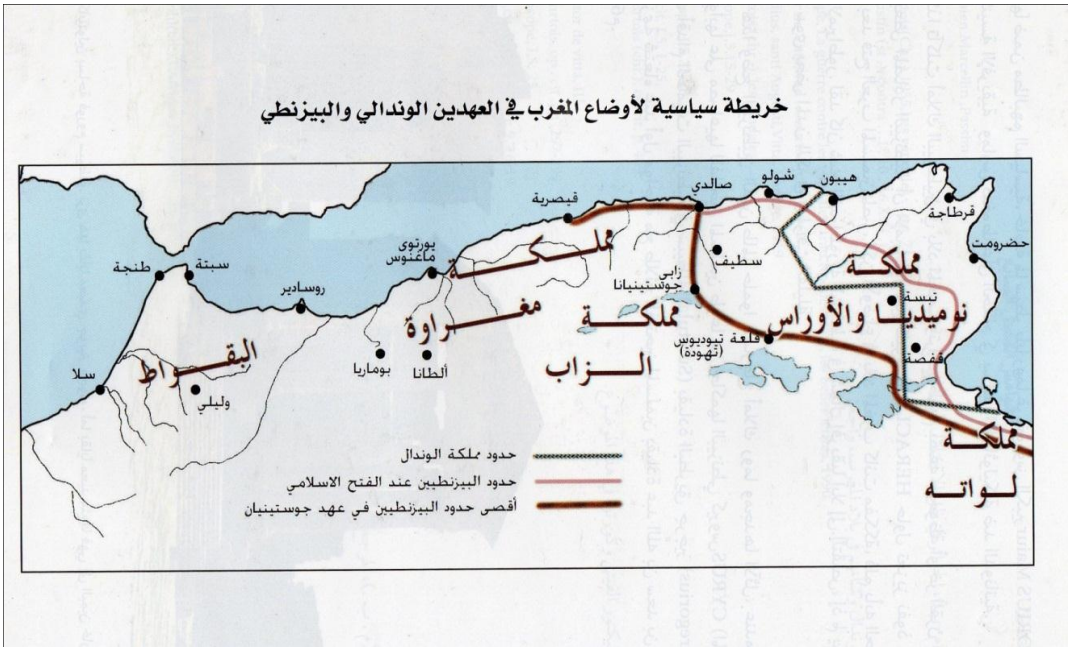

(نقلا عن: محمد البشير، شنيتي، الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 265)

وهذا ما تشهد به حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب، رغم اختلاف آراء المؤرخين حول حدود خط الليمس البيزنطي[1]، الذي يراه جوليان غير مخالف تماما لليمس الروماني في طرابلس والمزاق ونوميديا[2]، على خلاف البعض الآخر الذي رأى بأن البيزنطيين لم يتمكنوا من الوصول بحدودهم إلى الحدود الرومانية. والواضح من النصوص والأحداث التاريخية أنهم لم يسترجعوا كل ما كان بأيدي الرومان سابقا[3]. فقد كان الحاكم العسكري يعتمد على التحصينات أكثر من اعتماده على الجند، ولأن الوندال هدموا أو أهملوا البناءات الرومانية، وجب ترميمها وتشييد مباني جديدة، وهو ما قام به "صولومون" (سليمان) الذي وطد وعمم السياسة الدفاعية التي كان يطبقها "يوستينيانوس" في كامل الامبراطورية[4]، وذلك بإحاطة إفريقيا البيزنطية بحزام من القلاع بعد وصوله إلى قرطاجة مباشرة. ورغم أن الحروب لم تمهله في الفترة ما بين 536-539م لاستكمال مشروعه، إلا أنه استأنفه عند استتباب الأمن وسيطرة الجيش البيزنطي على الوضع العسكري داخل المناطق المحتلة عموما، حتى قيل أن هذا القائد

---

(1) Ch. Courtois, « De Rome à l'Islam », Revue africaine, Vol. 86, 1942, p. 39.

(2) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 363.

(3) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 277.

(4) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص362.

بنى أكثر من 150 مدينة إفريقية، أي أعاد تعميرها، وهو ما يشير إلى انعدام الأمن الناتج عن العداء بين البيزنطيين والمور الرافضين للانصياع للوضع الجديد الذي رأوا فيه تكرارا للاحتلال الروماني[1].

ففي مقاطعة نوميديا[*]، وهي المنطقة التي يقع الأوراس داخلها، يعتقد جوليان أن الليمس كان يمر جنوب الأوراس لا بشماله، لكنه كان يميل قليلا إلى الغرب. فالحدود تتجه من "تودة" (Thouda) إلى الشمال الغربي نحو شط الحضنة، ومنه إلى الشمال، ووجود قلعتي "زابي جوستينيانا" (Zabi Justiniana) قرب المسيلة، و "تاملولا" (Thamallula)قرب راس الواد يدعو إلى التفكير في أن الحدود كانت تحاذي تقريبا وادي القصب، ومن المرجح أنها تصل إلى بجاية[2]. لكن الطرف الآخر من المؤرخين يرى خلافا لذلك، مذكرا بدخول "يبداس" الأوراس بعد 7 سنوات فقط من حملة "صولومون" (سليمان)، وكذا اشتراك سكان الحواف الجنوبية للأوراس، وسكان الحواف الجنوبية للشطوط في الثورة سنة 546م، وهو ما لا يشهد على سيطرة بيزنطية فعلية، وأن البيزنطيين على هذا الأساس لم يتمكنوا من مد الليمس، لا في نوميديا، ولا في المزاق، أكثر مما كان عليه الليمس الروماني في القرن الأول للامبراطورية، باستثناء منطقة الحضنة[3].

وهكذا غطت خريطة المنشآت المناطق الحدودية المتاخمة لمرتفعات الأوراس شمالا (قلعة تيمقاد–تبسة–أميدارا(حيدرة)، وجنوبا باديا‌س–تبوديوس (شمالي سيدي عقبة –بسكرة–)، بغرض محاصرة مملكة الأوراس والتصدي للقبائل الرحل. ثم مرتفعات بلزمة والحضنة (قلعة تاملولا– باغاي) من الجهة الشمالية، و"زابي جوستينيانا" من الجنوب، على نقطة حدود استراتيجية تحمي الجنوب النوميدي ومدخل مقاطعة نوميديا السطايفية في آن واحد. فجهود "صولومون" اقتصرت على إقامة تحصينات تمكن الجيش البيزنطي من السيطرة على معابر البدو نحو بلاد التل الزراعي، وذلك بإنشاء مدن محصنة تشرف على الطرق المعتادة بين الحضنة والسهول الشمالية عبر وديان ومرتفعات بلزمة، وجبال الحضنة، منها أنه تم تحصين "طبنة" و "زراريا" و "تاملولا"، وربط بينها بمراكز حراسة تشرف من خلالها الحاميات العسكرية على الطريق الواصل بين الحضنة وسهول سطيف[4]. وقد ذكرت النصوص التاريخية بأن القبائل الضاربة جنوبي الشطوط (ملغيغ والجريد...)، والتي اجتهد البيزنطيون في إبعادها قد عادت من جديد

([1]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 414.

([*]) " أعيد تقسيم المقاطعات الافريقية بعد الاحتلال البيزنطي إلى سبع مقاطعات إدارية هي: 1–زوغيتانا (زغوان) (Zeugitana)، وتضم شمالي الأراضي التونسية على وجه التقريب. 2– بيزاكينا (المزاق) (Bisacena)، وتشمل الجزء الجنوبي من تونس. 3– تريبوليتانا (طرابلس) (Tripolitana)، تضم المناطق المحاذية للبحر من بيزاكينا إلى السرت الكبير بليبيا الحالية. 4– نوميديا، وتضم ما بقي من نوميديا الرومانية نظريا. 5– موريطانيا السطايفية. 6– موريطانيا القيصرية. 7– سردينيا (أنظر: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 260).

([2]) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 363.

([3]) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 279.

([4]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 416.

واستقرت في السفوح الجنوبية لمنطقة الأوراس ابتداء من سنة 546م، وهذا ما يؤكد بأن الاحتلال البيزنطي قد كان ضعيفا، وهو ما مكن المور من السيطرة على الوضع والتحكم في المسالك الرابطة بين بلاد التل والصحراء، وبذلك تقلصت السيطرة البيزنطية في الشمال فتخلت عن الأوراس مكتفية بالسفوح الشمالية منه، حيث شدد البيزنطيون تواجدهم بالقلاع والحصون المنتشرة هناك قصد التحكم في الاقليم الزراعي بالسهول العليا القسنطينية[1].

هذه المراقبة الشديدة للبيزنطيين على حدود خط الليمس كان ناتجا عن ثورات المور التي اشتعلت في كل المناطق بمجرد انتهاء الحملة البيزنطية، بما فيها منطقة الأوراس سنة 535-536م، بقيادة "يبداس". لكن قبل ثورة الأوراس نجد بأن "كوتزيناس" (Coutsinas) قد ثار بالمزاق سنة 534م، وإذا كان الشاعر اللاتيني "كوريبوس" (Corippe) قد عبر بصمت عن ثورة هذا القائد الموري، لأنه اعتبره دائما حليفا للإمبراطورية البيزنطية، فإن بروكوب قد أعطى رأيا مخالفا لذلك من خلال ما أورده من أن كوتزيناس كان إلى جانب الثوار في بيزاكينا، كما أصر على مشاركته في انقلابين متعاقبين[2]، فـ "كوتزيناس" تمكن رفقة ثلاثة من زملائه على رأس 50 ألف من المور من إفناء الوحدات البيزنطية التي جاءت لنجدة المنطقة بقيادة "إيقانوس" (Aigan)، و "روفانوس"(Rufin) ، وهوما دفع "صولومون" إلى الاسراع إلى المواق حيق دارت معركة "ماما" (Mamma) الكائنة بين سبيبة والقيروان، والتي فقد فيها المور 10 آلاف مقاتل حسب بروكوب، لكن تحدث هذا المؤرخ عن تلقي صولومون نبأ انتشار المور في المزاق على إثر وصوله إلى قرطاجة يدل على مبالغة مؤرخ الحملة، التي توضحت أكثر حينما تحدث عن المعركة الثانية في ضواحي جبل "برقوان" سنة 535م، والتي فقد فيها المور –حسبه- 50 ألف مقاتل دون أن يفقد البيزنطيون أحد[3].

ويبدو أنه في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث بالمزاق، نزل "يبداس" (Iabdas) ملك الأوراس صيف 535م على رأس 30 ألف مقاتل بجوب الهضاب العليا النوميدية حتى وصل حدود التل دون أن تتمكن الحاميات البيزنطية من صده[4]، حيث يذكر بروكوب أنه اجتاح نوميديا وسجن الكثير من الأشخاص[5]، حينها قرر صولومون أواخر سنة 535م غزو الأوراس بعد أم آمن جانب "أورتياس" (Orthaias) ملك الحضنة، و"ماسوناس"[6](Massonas)(*) . هذين الأميرين الموريين حدثنا بركوب عن أسباب تحالفهما مع صولومون ضد

---

(1) نفسه، ص 430.

(2) Yves. Modéron, « Corippe et l'occupation byzantine de l'Afrique : pour une nouvelle lecture de la Johannide », Antiquité africaine, T. 22, 1986, p. 202.

(3) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 272.

(4) نفسه، ص 273.

(5) Procope, Guerre des vandales, II, XIII, 1.

(6) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 272.

"يبداس". فـ ماسوماس كان يتهم "يبداس" بمقتل والده "Méphanias" إثر خيانة، رغم أنه قد تزوج بإحدى أخواته. أما "أورتياس" فكان دافعه هو التحالف السابق بين يبداس وماسوناس ملك مور موريطانيا بهدف طرده رفقة المور التابعين له من المنطقة التي كان يحكمها (مملكة الحضنة)[1]. لكن الحملة فشلت بعد أزيد من أسبوع في مخانق الأوراس، اضطر سليمان (صولومون) بعدها إلى العودة إلى قرطاجة على أمل أن يعاود الكرة في الربيع الموالي (536م). لكن انقلاب القائد العسكري "ستوتزاس" (Stotzas) تسببت في إبعاده وعودته إلى القسطنطينية[2]. وحسب جوليان فإن انقلاب "ستوتزاس" سنة 536م راجع إلى أن سليمان كان فظا غليظا يعامل جنوده معاملة العبيد، مما أدى إلى كره ضباطه وجنده له على حد السواء، وهو ما أدى إلى استبعاد سليمان واستقدام ابن عم الامبراطور "جوستينيان" وهو " جرمانوس". لكن سليمان أستقدم مرة أخرى سنة 539م بعد القضاء على التمرد[3].

وإذا كانت المرحلة الأولى لثورة الأوراس (535-539م) قد انتهت بفشل البيزنطيين بسبب تمرد الجيش البيزنطي والطرق الوعرة في جبال الأوراس، وقلة الماء، وأيضا بسبب استخدام مور الأوراس للتحصين، ومعرفتهم الجيدة بالمنطقة، وكذا استعمال حرب العصابات ونهج سياسة الكر والفر، إضافة إلى استدراج البيزنطيين إلى المناطق الوعرة بغية مراقبتهم وتطويقهم عسكريا[4]، فإن الحملة الثانية التي قادها سليمان سنة 539م ضد الأوراس، وقصد حسب بروكوب الجبال الممتدة جنوبي خنشلة وتيمقاد ولمباز[5]، قد أسفرت في البداية عن انتصار يبداس الذي أحسن التحكم في منابع مياه وادي "أبيقاس"، حيث أغلق جميع مجاري النهر باستثناء المجرى المتجه نحو مدينة باغاي، أي نحو المعسكر البيزنطي الذي غمرته المياه، مما دفع القائد الروماني "قونتاريس" (Guntharis) إلى

(*) أن إفريقية في عهد الامبراطور "هيراكليوس (Héraclius) (توج إمبراطورا في 5 أكتوبر 610م)، الذي أوكل أمرها إلى ابن عمه قد عرفت في عهده فترة من الهدوء، وأن المسيحية والسلطة الامبراطورية انسجمتا وسجلتا بعض التقدم في الجريد والأوراس والزاب، وإن لم تقم الحجة على هذا التقدم فهناك على الأقل دليل على تغلغل المسيحية في موريطانيا بـ "بني جدار" يتمثل في 13 ضريحا تعود إلى القرنين السادس والسابع ميلاديين تقع في الجنوب الغربي من تيارت. فهذه القبور تدل على وجود روابط معنوية على الأقل بين عائلة حاكمة مورية قوية دينها المسيحية، وبين الامبراطورية البيزنطية. وقد افترض الباحثون أن "ماسوناس" (Massonas) الذي ذكره بركوب ولمح إلى علاقاته الطيبة مع سليمان ينتمي إلى هذا البيت، وهو نفسه الأمير الموري الذي نجده في نقائش ألتافا (Altava) سنة 508م تحت اسم "ماسونا"(Masuna) الذي كان يسيطر على كامل مقاطعة وهران وحتى على الأوراس" (أنظر: شارل أندري، جوليان، المرجع السابق، ص 381).

(1) Procope, Guerre des vandales, II, XIII, 2

(2) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 272.

(3) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 369.

(4) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 274.

(5) شارل أندري، جوليان: نفس المكان.

الفرار مع الجيش متجها نحو سليمان الذي غادر قرطاجة وعسكر بجيوشه كاملة[1] في أسفل جبل "بوروغل" (Bou Roughal)، ومنه انطلق فهزم يبداس، حيث نهب المحاصيل الزراعية حول تيمقاد ثم تعقب ملك الأوراس ورجاله البالغ عددهم 20 ألف حتى حصن "زربولة"(Zerbula) ، ولكنه لم يتمكن من دخوله إلا بعد فرارهم، ثم نجح بعد عناء شديد في اقتحام تحصينات "تومار" (Toumar) العجيبة المقامة فوق جبل أوراس، وبعدها تحصينات صخرة "جمنة" (Geminianus) المنيعة، وقد تكون في فج واد مسرور، أين أودع يبداس كنوزه والنساء تحت حراسة شيخ[2]. ويبدو أن انتصار البيزنطيين راجع إلى تمكن أحد القادة البيزنطيين والمدعو "كنزو"(Genzo) من تسلق جبل الأوراس والاقتراب من معسكر الأوراسيين وقتل ثلاثة من أتباع يبداس، مما ساعد على اندفاع باقي أفراد الجيش لبيزنطي على هذا الممر. فكانت وسيلة الأوراسيين للخلاص هي الفرار، خاصة بعد اصابة يبداس في ذراعه وفراره كذلك عبر الطريق المؤدية إلى موريطانيا، فتحقق لسليمان بذلك السيطرة على منطقة الأوراس[3]. كما أسفرت حربه عن نجاح باهر دعمه ببناء سلسلة من التحصينات المنيعة في قلب الأوراس، وفي نوميديا وموريطانيا القيصرية، مما جعله يحافظ على السلم طيلة أربع سنوات[4].

ورغم انتهاء الثورة بالأوراس إلا أن بقية مناطق بلاد المغرب ظلت الثورات بها بين الحين والآخر، مثلما حدث بعد انقضاء أربع سنوات من ثورة الأوراس، وهي ثورة قبيلة لواتة سنة 544م، والتي شارك فيها أمير الأوراس يبداس. ذلك أن تعيين "سرجيوس" (Sergius) دوقا على إقليم طرابلس تسبب في ثورة قبيلة لواتة التي هاجمت لبدة. ورغم تمكن القوات البيزنطية من صدها، فإن ثورة إقليم طرابلس دفعت "سرجيوس" إلى الفرار نحو قرطاجة ليستنجد بسليمان الذي خرج لملاقاة المور عند حدود نوميديا–المزاق، ورغم تمكنه في اللقاء الأول من تحقيق انتصار جزئي في ضواحي تبسة، فقد هزم في معركة "كيليوم" (Cillium) التي لقى فيها مصرعه سنة 544م[5].

وبعد مقتل سليمان وتعيين "سرجيوس" خلفا له استغل الأمراء المور فرصة تمرد الجيش البيزنطي بقيادة "ستوتزاس" سنة 544م، فتحالف "أنتلاس" ملك المزاق رفقة قادة مور آخرين مع المتمردين، حيث تمكنوا من السيطرة على المقاطعات البيزنطية كالمزاق وحضرموت (سوسة) حتى وقفوا على أبواب قرطاجة. فكاد جوستينيان أن يفقد إفريقيا جراء هذه الأحداث، مما جعله يوفد اليها قائد جيوش الشرق الامبراطوري المحنك والمتمرس "يوجنا تروقليتا"(J. Troglida) سنة 546م، حيق تمكن هذا الأخير من إخضاع الجنود البيزنطيين المتمردين وقتل قائدهم ستوتزاس، ثم استطاع أن يفك الحصار على أهم المدن، لكنه لم يقو على إزاحة المور إلا بالاستعانة بأمراء

([1]) جميل، حمداوي: نفسه، ص 275.

([2])شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 369

([3]) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 275.

([4]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 370.

([5]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص ص. 273، 274.

مور آخرين لم يشاركوا في قتال البيزنطيين من " أنتلاس" بسبب خلافات قديمة حول الزعامة أو الحدود، فبقوا على الحياد، لكن "تروقليتا" استمالهم إلى جانبه مقابل مكتسبات اقليمية، إضافة إلى اعتراف الامبراطور بهم كأسياد على ممالكهم، حيث كان من بينهم قائد ثورة الأوراس يبداس، وكذلك الأمير "كوتزيناس"[1] الذي كان يسيطر على مناطق من نوميديا بالجوار من مقاطعة بيزاكينا. هذا التحالف الذي جعل النصر حليفا للبيزنطيين سنة 548م[2].

وهوما كان وراء الهدوء الذي نعم به البيزنطيون على مدى 14 سنة على الأقل، ليتجدد بعدها إثر مقتل كوتزيناس في قرطاجة سنة 563م، وكذا آخر الثوار المور المدعو "غرمول" (قسمول) سنة 579م بتواطؤ من أمراء مور منافسين له أرادوا الاستفادة من مهادنة البيزنطيين[3]، فإن هؤلاء الأخيرين قد تعذر عليهم التحكم في أوضاع المور عموما، فاكتفوا بمهادنتهم أحيانا ومحاولة التصدي لطموحاتهم نحو مزيد من المكاسب الاقليمية على حساب البيزنطيين أحيانا أخرى. إذ نجد في وصول المور إلى أبواب قرطاجة يعد ثورة 598م ما يدل على هشاشة الوجود البيزنطي وتراجعه. فالاحتلال البيزنطي رغم نجاحه ظاهريا، إلا أنه يخفي مساوئ كثيرة وحروبا شرسة ضد المور، ومنهم مور منطقة الأوراس التي ظل فتيل الثورة بها مشتعلا إلى سقوط البيزنطيين على يد الفاتحين المسلمين.

قائمة البيبليوغرافيا

أولا: المصادر:

1-Ammien Marcellin, Histoire de Rome, XXIX.

2-Corippe, la Johannide, Revue tunisienne, Tunis, 1900.

3-Procope, Guerre des Vandales, I.

4-Tite-Live, Histoire romaine, XXII.

5- Victor, évêque de Vita dans la Bysacène. Histoire de la persécution des vandales, I.

ثانيا: المؤلفات:

6– حارش، محمد الهادي: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، الجزائر، 1992.

7– حمداوي، جميل: المقاومة الأمازيغية عبر التاريخ، منشورات المعارف، الرباط– المملكة المغربية، 2013.

---

(1) Yves. Moderon, Op. Cit, p. 202.

(2) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 264.

(3) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 277.

8– شارل أندري، جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة،ج1، الدار التونسية للنشر، 1969.

9– شنيتي، محمد البشير: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

10– شنيتي، محمد البشير: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى– عين مليلة، الجزائر، 2013.

ثالثا: الدوريات:

1–Ch. Courtois, « De Rome à l'islam », Revue africaine, Vol. 86, Office des publication universitaire, Alger, 1942.

2–Claude. Bourgeois, « Vandale et vandalisme en Afrique », Antiquité Africaine, Tome. 16, by creative commons, 1980.

3– G.Camps, « L'inscription de Béja et le problème des Dù Mauri », Revue africaine, Vol. 98, 1954.

4–J. Carcopino, « Encore Masties l'empéreur maure inconnu », Revue Africaine, Vo. 100, 1956.

5– Michel. Janon, « L'Aurès au VI siècle. Note sur le récit de Procope » , Antiquité africaine, Tome. 15, 1980.

6–Yves. Moderon, « Corippe et l'occupation byzantine de l'Afrique : pour une nouvelle lecture de la Johannide », Antiquité africaine, Tome. 22, 1986.

ANOM11H28 COLONNE HERBILLON 1849 رية للجنرال هيربيون